والعلماء بها لايكاد أحد منهم يقدم على جمع طائفة منها وجعلها قصة تمثيلية . واذا فتح هذا الباب ووجد منهم من يدخله على سبيل الندور لا يلبث ان يسبقه اليه كثير من الجاهلين بالسنة المتقنين لوضع هذه القصص بالاسلوب الذي يرغب فيه الجمهور فيضمون من قصص الانبياء المشتملة على الكذب ما يكون أروج عند طلاب الكسب بالتمثيل ، فيكون وضع الصحيح ذريعة الى هذه المفسدة

فعلم من هذه الوجوه ان جواز تمثيل قصة رسول من رسل الله عليهم السلام يتوقف على اجتناب جميع ماذكر من المفاسد وذرائعها بحيث يرى من يعتد بمعرفتهم وعرفهم من المسلمين انه لا يعد ازراء بهم ، ولا منافيا لما يجب من تعظيم قدرهم ، صلوات الله وسلامه عليهم وعلى من اهتدى بهم .

رحلة الحجاز

٨

أيام منى ولياليها وأقوال الشعراء فيها

نصوص الشرع في أيام منى

قال عز وجل (وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ، وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) أجمع العلماء على أن الايام المعدودات في هذه الآية هي أيام منى التي تسمى أيام التشريق . قيل إن سبب تسميتها بذلك أنهم يشرقون فيها لحوم الاضاحي أي يقددونها ويبرزونها للشمس . وقيل لان الهدايا والضحايا لم تكن تنحر فيها الا بعد شروق الشمس ، وقيل هو مأخوذ من قول الجاهلية : أشرق ثبير ، كيما نغير . أي ادخل يا ثبير في الشروق لكي نسرع في الدفع الى منى للنحر ، ذلك بأنهم كانوا لا يفيضون من المزدلفة الى منى الا بعد شروق الشمس ووقوعها على جبل ثبير أعظم تلك الجبال ، فأمرنا بمخالفتهم بالافاضة قبل الشروق . وقيل

لانها أيام تشريق لصلاة يوم النحر فصارت تبعا له ، وأطلقوا التشريق على صلاة العيد وسموا مصلى العيد مشرقا . والجمهور على ان هذه الايام هي الثلاثة التي تلي يوم عيد النحر وأدخله بعضهم فيها ، ولكن تخيير المتقي بين التعجل في يومين أو التأخر انما هو في أيام منى الثلاثة التي بعد يوم العيد .

ووصفت أيام منى الثلاثة أو الاربعة بالمعلومات في قوله عز وجل في الحجاج (ليشهدوا منافع لهم ويذكروا الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام. فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير) وتطلق الايام المعلومات على أيام عشر ذي الحجة الاوائل أو التسع التي آخرها يوم عرفة .

روى أحمد ومسلم والنسائي عن أبي نبيشة الهذلي قال قال رسول الله (ص) « أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله عز وجل » وفي رواية ضعيفة عند غيرهم زيادة « وبعال » بعد شرب . والبعال والمباعلة الملاعبة بين البعلين (الزوجين) ومعناها صحيح فانه يحل في أيام منى كل ما كان محرما بالاحرام حتى التغشي ، وانما يحل بعد طواف الافاضة الذي تتم به أركان النسك كلها . والمراد بالاكل الاكل من لحوم الاضاحي المطلوب بقوله تعالى (فكلوا منها) وغيرها من الطيبات ، فان هذه الايام أيام عيد وسرور شرع فيها الجمع بين التمتع بالملذات المباحة حتى الهو بالحراب وسماع الغناء وبين ذكر الله تعالى وشكره على إنعامه بها وبالتوفيق لاقامة النسك .

وشعار هذه الايام من الذكر التكبير ويستحب رفع الصوت به والاشتراك فيه عقب الصلوات وفي عامة الاوقات والامكنة فقد روى سعيد بن منصور وأبو عبيد ان عمر (ص) كان يكبر في قبته بمنى فيسمعه أهل المسجد فيكبرون ويكبر أهل الاسواق حتى ترتج منى تكبيرا » وذكره البخاري في الصحيح تعليقا . وأصح ما ورد في صيغته ما أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن سلمان قال « كبروا : الله أكبر الله أكبر الله أكبر كبيرا » وروي عن الصحابة والتابعين التكبير ثلاثا ومرتين وزيادة التهليل. والظاهر ان النبي (ص) لم يأمر الناس بصيغة مخصوصة في التكبير والذكر في العيدين وأيام منى كما انه لم يأمرهم بأذكار وأدعية معينة في الطواف والسعي والوقوف بعرفة

يأتي كل فرد أو جماعة بما شاؤا ، فلا بأس اذا بما استحدث الناس من الذكر وصيغ التكبير مما لم يرد عن السلف وان أشار بعض العلماء الى استنكاره لذلك كأنه يراه من البدع باستحداث صفة لعبادة تعد من الشعائر ، وهو ما سماه بعضهم بالبدعة الاضافية . وانما يتجه هذا اذا التزموه جهرا بغير زيادة ولا نقصان ، ويتأكد إنكاره اذا صار بحيث تظن العامة انه واجب أو مندوب بهذا الوصف . وقد ذكر الامام الشافعي في الام أن التكبير المشروع في العيدين هو كلمة « الله أكبر » وان التثليث في بدئه مستحب وان لكل أحد ان يزيد من الذكر ماشاء

وكذلك التكبير والدعاء والتضرع عند رمي الجمار ، يرمي كل جمرة بسبع حصيات مكبرا مع كل حصاة ويقف عند الاولى والوسطى فيطيل القيام يدعو ويتضرع ولا يطيل عند جمرة العقبة . هكذا كان يفعل النبي (ص) وروي تقدير قيامه (ص) عند الجمرتين الا بقدر سورة البقرة

وكانت ذبائح النبي (ص) في حجة الوداع مئة من الابل جاء بثلاث وستين منها معه من المدينة وجاء علي كرم الله وجهه بالباقي من اليمن وقد نحر النبي (ص) ٦٣ بيده الكريمة فكانت اشارة الى سني حياته الشريفة وأمر عليا فنحر الباقي . وأمره (ص) بأخذ بضعة (بفتح الباء قطعة) من كل بدنة فجعلت في قدر فطبخت فأكل هو وعلي منها وشربا من مرقها

كلمة تاريخية أدبية في أيام منى

سمعنا من الشريف في منى كلمة جديرة بالحفظ والتدوين ، قال : كانت أيام منى أول الاسلام من أطيب أيام الحياة — أي لما تقدم بيانه من الجمع بين اللذات الروحية والبدنية والاجتماعية — فلما قربت المواصلات بين الاقطار الاسلامية البعيدة صار ينتقل الوباء الى الحجاز مع الحجاج الموبوئين فيكون أشد فتكه عند اجتماع الناس في منى ، فصارت أيام منى أيام غم وكدر يتمنى الناس فيها بالموتى في كل مكان ، وتعد الحكومة لها الالوف الكثيرة من الاكفان ، ونحمد الله انه لم يمت فيها أحد في هذا العام لا بمرض وبائي ولا بمرض عادي اه بالمعنى

أقول من الشواهد المؤيدة لهذه الكلمة القارعة نكتة ذكر منى في أشعار المتقدمين الغزلية والتغزل بالنساء عند رمي الجمار فيها، ونكتة مثل ذلك في غيرها من المشاعر، وعند غير رمي الجمار من الشعائر، ذلك بأن ما تقدم له شرحه من تأثير الاحرام ولباسه في القلب وتأثير رؤية المشاعر العظام والطواف بها والوقوف فيها أيضا — كل ذلك مما يصرف الحاج عن كل ما عداه، ولا يدع في قلبه فراغا واسعا لغير ذكر الله، لا ذكر الحسان، ولا ذكر الاهل والولد والاخوان، فالتجلي الالهي في جميع المشاعر، أثناء اداء جميع المناسك، تجلي هيبة وجلال، الا منى فان التجلي فيها تجلي انس وجمال، ولا تنس ما ذكرناه آنفا من تحلل الحاج فيها من الاحرام، واستباحته ما كان محرما من الاعمال، وكونها أيام عيد يستحب فيها التنعم بالطيبات، وزد على ذلك أن لياليها هي الليالي التي يكمل فيها نور القمر، وأن هواءها اللطيف يجيب اليك السمر،

رفقا بها يأيها الزاجر فدلاح سلع وبدا حاجر
وخلها تسحب أرسانها على الربا لا راعها ذاعر
واذكر أحاديث ليلي منى لاهدم المذكور والذاكر

*

لهف نفسي لليال سلفت آه لو ترجع هاتيك الليالي
لاتقل لي بمنى تعطى المنى بمنى كان من القوم انفصالي

*

صحبي مضوا فندامي منهلة في اثر صحبي
ما فوق الهجران سم ما فاتني عن قصد قلبي
كلا ولا نادى الجوى الا وكنت انا الملبي
ولقد وقفت على منى لولا المنى لقضيت نحبي

وأشعار الشعراء بالتغزل بالنساء في منى ورميهن الجمار كثيرة من أحسنها قول الشريف الرضي وهو من التغزل الخيالي التنزيه

من مُعيدٍ لي ليا ... مي بجزع السمُرات (١)
ولياليَّ بجَمْع ... ومِنًى والجمرات (١)
وظباء حاليات ... كظباء عاطلات (٣)
رائحات في جلابيـ ... ـب الدجا مخمرات (٤)
راميات بالعيون ال ... نجل قبل الحصيات
أَلِعَمْرِ القلب راحوا ... أم لقبر البدنات (٥)
كيف أودعت فؤادي ... أعينا غير ثقات
أيها القانص ما أحـ ... ـسنت صيد الظبيات
فاك الشربُ وما زُؤدت غير الحسرات
ياوقوفا ما وقفن ... في ظلال السلمات (٦)
موقفا يجمع فتيا ... ن الهوى والفتيات
تشاكى ما عنانا ... بكلام العبرات

(١) الجزع بكسر الجيم وسكون الزاي منعطف الوادي ومنحناه والسمرات جمع سمرة وهي شجرة السمر بفتح السين وضم الميم وهي من شجر العضاه أي ذي الشوك وشوكها قصير وورقها صغير ولها برم أي ثمر أصفر فوكل (٢) جمع اسم المزدلفة وذكر في هذه الرحلة (٣) حاليات مزينات بالحلي وهن الظبيات بالمجاز وعاطلات غير متحليات وهن الظبيات بالحقيقة (٤) الدجا سواد الليل مع غيم يمنع رؤية القمر والنجوم . يعني يخرجن ليلا لرمي الجمار وغير الرمي من حاجهن فيكون الدجا ساترا لهن كالجلابيب حالة كونهن مخمرات مخمرهن مبالغة في الستر (٥) ذكر ضمير راحوا وقلما يأتي في الفصيح الا لنكتة كتذكيره في السلام على امرأة ابراهيم (ص) في سورة هود وارادة إذهاب الرجس عن نساء النبي (ص) في سورة الاحزاب لشمول الخطاب للخليلين في الخطابين ، ولعل الشاعر هنا يعني انهن يخرجن مع رجالهن (٦) السلمات جمع سلمة بفتحتين وهو من شجر العضاه كالسمر ويكثر في جزيرة العرب ، والخطاب للرجال الذين وقفوا في ظلال شجر السلم مدة وقوف أولئك النساء يتشاكون معهن الجوى بكلام العبرات اي الدموع الدال على مافي القلوب

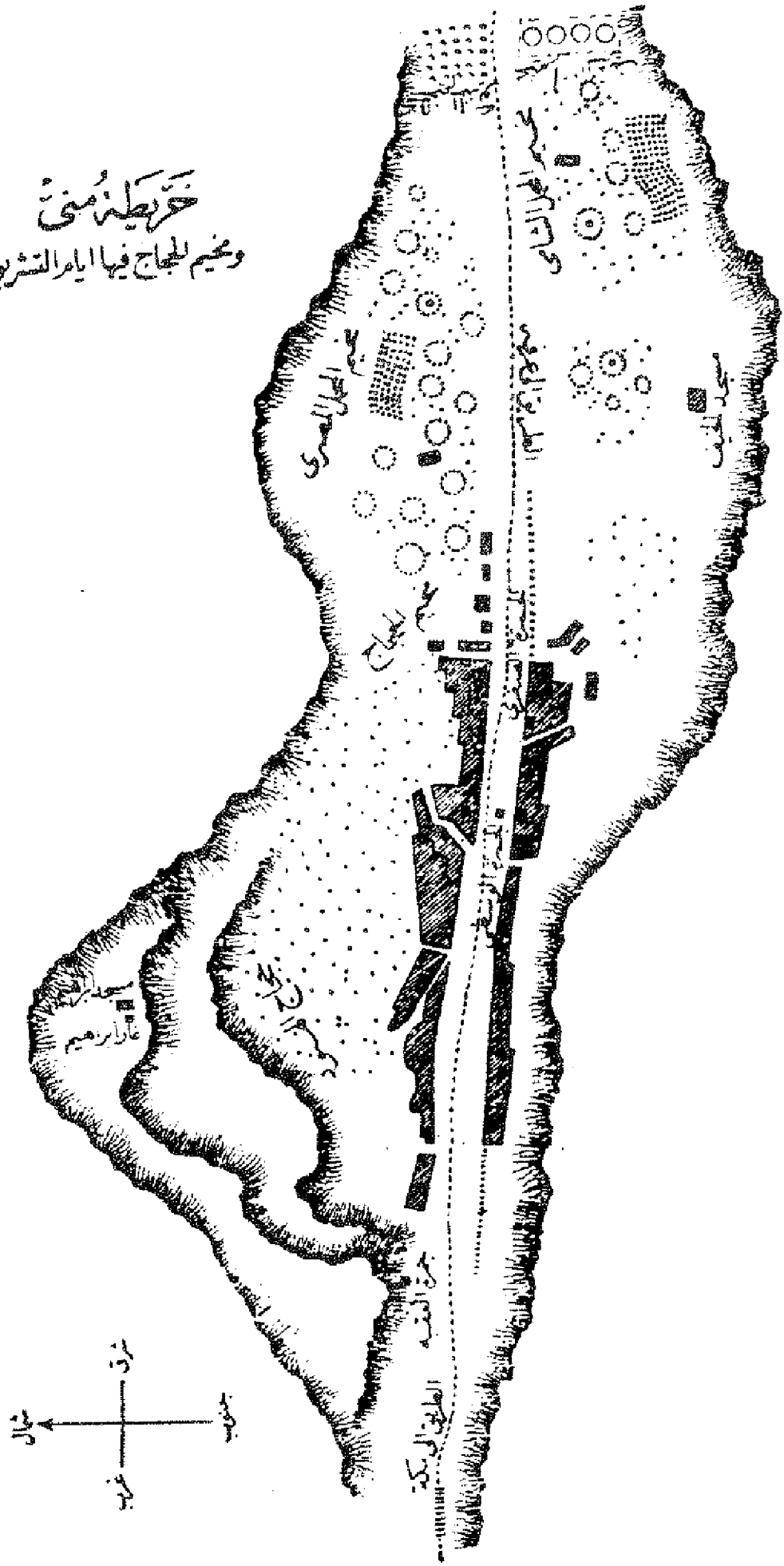

هذه الصورة رسمت لرحلة البتانوني

نظرٌ يشغل منا كل عين بقذاة (١)
كم نأى بالنفر عنا من غزال ومهاة (٢)
آه من جيد الى الدا ر كثير اللفتات (٣)
وغرام غير ماض بلقاء غير آت
فسقى بطن منى والـ ـخيف صوب الغاديات (٤)
وزمانا نائم الـ ـذ مأمونَ الوشاة
في ليال كاللثالي بالغواني مقمرات
غرست عندي غرسَ الـ ـشوق ممرورَ الجناة (٥)
أين راقٍ لغرامي وطبيبٌ لشكاتي (٦)

(١) يعني ان كل عين من أعين فتيان الهوى والفتيات تذرف العبرات في موقفها ذاك حتى كان فيها قذاة تستنبط دموعها وهي ما يقع في العين من عصفة تبن وغيرها (٢) المهاة البقرة الوحشية تشبه بها المرأة النجلاء لسعة عينيها وحسنهما ، وأشار بغزال ومهاة الى فتيان الهوى والفتيات الذين وصف موقفهن عند الوداع كما علم من ذكره النفر هنا وهو الدفع من منى (٣) المراد بالدار دار منى (٤) بطن منى واديها والخيف سفح جبالها أي سقاها كلها ما يصوب وينسكب من المطر في الغداة أي أول النهار . فالغاديات جمع غادية وهي السحابة التي تنشأ أول النهار . أو المطرة فيه (٥) الجناة ما يجني من الثمر والظاهر انه أراد بالممرور المرّ — ضد الحلو — وفعل المرارة لازم لا مفعول له ، وانما الممرور من غلبت عليه المرة وهي بالكسر ما يسمى الصفراء أو السوداء من اخلاط البدن . والشريف من أئمة اللغة فلا بد ان يكون لاستعماله مخرج اذا صحت الرواية عنه وان لم يكن استعماله حجة في اللغة (٦) الشكاة بالفتح ما يشكى من مرض عرض أو ألم ألمّ . سأل ما عزّ فلا يوجد وهو الراقي لغرامه والطبيب لسقامه ، وانما احتاج الغرام للراقي دون الطبيب لأنه وجد نفسي روحي يحتاج الى المسكنات الروحية وان وهمية . والاستفهام استفهام توجع ويأس

ومن التغزل الخيالي في منى وغيرها من معاهد النسك وأعماله ما قاله أبو محمد عبدالله بن محمد التنوخي في قصيدته التي مدح بها ثقة الدولة يوسف بن محمد بن الحسين القضاعي صاحب صقلية الروم وهو:

ولما التقينا محرمين وسيرُنا ... بلبيك ربّا والركائبُ تعسف (١)
نظرتُ اليها والمطيُّ كأنما ... غوارِبها منها معاطسُ رعّف (٢)
فقالت أما منكنّ من يعرف الفتى ... فقد رابني من طول ما يتشوف (٣)
أراه اذا سرنا يسير حذاءنا ... ونوقف أخفاف المطيّ فيوقف
فقلت لتربيها أبلغاها بأنني ... بها مستهام قالتا نتلطف (٤)
وقولا لها يا أم عمرو أليس ذا ... مِنًى والمُنى في خيفه ليس يُخلَف (٥)
تفاءلت في أن تبذلي طارف الوفا ... بأن عنّ لي منك البنانُ المطرَّف (٦)
وفي عرفات ما يخبر أنني ... بعارفة من عطف قلبك أسعف (٧)

(١) قوله وسيرنا بلبيك ربا . معناه ان سيرهم ملابس ومصحوب بالتلبية المعروفة. وعسف الركائب خبطها في السير على غير هدى لعله لشدة الزحام أو في السرى، يقال بات فلان يعسف الليل اذا خبطه في ابتغاء طلبته (٢) الغوارب جمع غارب وهو الكاهل أو ما بين السنام والعنق ، والمعاطس الأنوف والرعف الرواعف أي التي يسيل منها الدم ، والمراد ان الغوارب جرحت من طول السير والاقتاب عليها حتى كان منها أنوفا راعفة (٣) رابه أوقعه في الريبة وهي الشك والتهمة ، والتشوف الى الشيء التطلع اليه ، أي ان تظلمه وإدمانه النظر اليها حملني اتهمه بأنه يتعمد ذلك لأمر ما في نفسه ثم فسرت ذلك فقلت لصواحبها بسيره حذاءهم اذ سرن ووقوفه اذا وقفن (٤) الترب بكسر التاء وسكون الراء اللدة وهي بالكسر من ولد معك فترباها رفيقتان لها من سنها والمستهام من جعله الحب كالهائم في الفلوات لا يهتدي سبيلا الى النجاة (٥) شرع بتسميلها بالتفاؤل بنيل مودتها مستنبطا له من أسماء الامكنة وغيرها على طريق السيافة التي ستذكر في الأبيات ، وبدأ بذكر منى فجعلها فألا بنيل المنى وهو جمع منية (بوزن غرف وغرفة) ومعناه ما يتمنى وقد تقدم ان خيف منى سفح جبلها (٦) طارف الوفاء حديثه وجديده والبنان الاصابع وقد يخص بالعقد العليا منها واحدتها بنانة والمطرف المخضوب بالحناء (٧) العارفة المعروف في المعاملة المراد من حديث « من أسدى اليكم معروفا فكافئوه » والاسعاف بالحاجة قضاؤها

وأما دماء الهدي فهي هُدى لنا ... يدوم ورأي في الهوى يتألف (١)

وتقبيلُ ركنِ البيت إقبالُ دولة ... لنا وزمانٍ بالمودة يعطف

فأوصلتا ما قلته فتبسمت ... وقالت أحاديثُ العيافة زُخْرُف (٢)

بعيشي ألم أخبركما أنه قضى ... على لفظه بُرْدُ الكلام المفوّف (٣)

فلا تأمنا ما اسطعتما كيد نسقه ... وقولا ستدري أيُّنا اليومَ أعيَفُ (٤)

إذا كنت ترجوفي مني الفوز بالمنى ... ففي الخيف من إعراضنا نتخوّف

وقد أنذر الإحرام أن وصالنا ... حرام وأنّا عن مزارك نصدف (٥)

وهذا وقذفي بالحصى لك مخبر ... بأن النوى بي عن ديارك تقذف (٦)

وحاذر نفاري ليلة النفر انه ... سريع ، فقل من بالعيافة أعرف (٧)

---

(١) الهدي بالفتح ما يهدى الى الحرم من الانعام وهي ذبائح النسك والهدى بضم ففتح الدلالة على المطلوب بلطف والايصال اليه كذلك وهو ضد الضلال والمراد ان كلمة الهدي بالفتح كل دال على تواصل دائم لنا (٢) العيافة التفاؤل أو التشاؤم بحركات الطير ومساقطها وأسمائها . هذا هو الاصل ثم توسعوا فيه بمثل ما ترى في هذه الابيات والزخرف الزينة والتزويق تعني انها من زخرف الكلام لا من الحقائق كقوله تعالى (يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا) وفي حديث قبيصة عند أبي داود « العيافة والطيرة والطرق من الجبت » أي من الخرافات كالكهانة والسحر والحديث صحيح السند (٣) البرد الثوب المخطط والمفوف الرقيق ، وتعني به لطافة كلامه وحسنه وكونه ينم عما وراءه (٤) أعيف اسم تفضيل من العيافة . يقال عاف الطير يعيفها اذا زجرها وتطير بها وهو ما تقدم آنفا (٥) نصدف نعرض (٦) أي وقذفي بالحصا في رمي الجمار مخبر لك بأن النوى أي البعد أو وجهة السفر (وهي مؤنثة) ترمي بي في مكان بعيد عن ديارك (٧) النفار والنفور مصدر نفر (من باب نصر وضرب) وهو الشرود بسبب مزعج ومنه نفار الظبي والدابة والنفر للقتال . والنفر التفرق . ويوم النفر وليلة النفر هو يوم ينفر الحاج من منى وهو ثاني أيام التشريق لمن تعجل ويسمى النفر الاول وثالثها لمن تاخر ويسمى النفر الثاني

فلم أر مثلينا خليليْ مودة لكلٍّ لسان ذو غرارين مرهف (١)

وما قيل في أيام منى ولياليها مارواه صاحب الأغاني عن معبد المغني الذي يضرب به المثل قال أتيت أبا السائب المخزومي — وكان يصلي في كل يوم وليلة ألف ركعة — فلما رآني تجوز أي خفف الصلاة وقال مامعك من مبكيات ابن سريج ؟ قلت له :

ولهنّ بالبيت العتيق لبانة والبيت يعرفهن لو يتكلم
لو كان حيًّا قبلهن ظعائنا لحيا الحطيمُ وجوههن وزمزم
لبثوا ثلاث منى بمنزل غبطة وهو على سفرٍ لعمرك ماهو
متجاورين لغير دار إقامة لو قد أجدّ تفرق لم يندموا

فقال لي غنه ففنيته ثم قام يصلي فأطال ثم تجوز إلي فقال مامعك من مطرباته ومشجياته ؟ فقلت قوله

لسنا نبالي حين ندرك حاجة مابات أوظل الطي معقلا

فقال لي غنه ففنيته ثم صلى وتجوز الي وقال ما معك من مرقصاته ؟ فقلت

فلم أر كالتجمير منظر ناظر ولا كليالي الحج أفتنّ ذا هوى (٢)

فقال كما أنت حتى أغمر لهذا بركعتين

وأما التغزل في نساء معروفات في وقائع ومشاهد كانت هنالك فكثيرة، لزبر النساء الشهير عمر بن أبي ربيعة الشاعر القرشي كثير — منها قوله في أيام منى

ما أنس لا أنس يوم الخيف موقفها وموقفي وكلانا ثم ذو شجن
وقولها اغربا وهي باكية والدمع منها على الخدين ذو سنن (٣)

---

(١) أي لكل منا لسان ذو حدين مرهف من أرهف السيف اذا رقق حده ، ويعني بغراري اللسان قدرته على جعل الكلام الواحد على وجهين متقابلين متضادين كجعل أعمال النسك ومواضعه للتفاؤل وللتشاؤم فهو كالسيف ذي الحدين

(٢) الشعر لعمر بن أبي ربيعة وانما لابن جريج الصوت . والتجمير رمي الجمار وأفتن بالهمزة كفتن من الفتنة وهو لغة نجد وفي نسخة ديوان عمر المطبوعة أفلتن

(٣) السنن بالفتح الطرق وهي مجاري الدمع

بالله قولي له في غير معتبة ماذا أردت بطول المكث في اليمن
ان كنت تطلب دينا أو رضيت بها فما أخذت بترك الحج من ثمن

قال ابن سريج المغني ما ظننت ان الله عز وجل ينفع أحدا بشعر عمر ابن أبي ربيعة حتى سمعت وأنا باليمن منشدا ينشد قوله : بالله قولي له — اليمين — فركني ذلك على الرجوع الى مكة فخرجت مع الحجاج وحججت

وقد كان عمر مفتونا بالنساء وحديثهن ولم تكن هيبة بيت الله وسائر المشاعر الشريفة لتصرفه عن مغازلتهن حتى في أثناء أداء المناسك لانه وهو مكي قد ألفها واعتادها والآفاقيون أشد هيبة وخشوعا هنالك من الحرميين في الغالب . ومما روي عنه في كتاب الاغاني أنه بينما كان يطوف رأى امرأة من أجمل النساء فوقعت في قلبه فدنا منها فكلمها فلم تلتفت اليه ، فعاودها في الليلة الثانية فقالت اليك عني يا هذا فانك في حرم الله وفي أيام عظيمة الحرمة فألح عليها يكلمها حتى خافت ان يشهرها . فلما كان في الليلة الثالثة جاءت بأختها معها الى الطواف فلما رأى عمر أختها معها عدل عنها وقالت بقول جرير

تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتتقي صولة المستأسد الضاري

وروي ان المنصور حدث بهذا الخبر فقال : وددت انه لم تبق فتاة في خدرها الا سمعت بهذا الحديث . أقول وهو شاهد على حكمة الشرع في حظر السفر على المرأة الا مع ذي محرم . هذا وان شعر عمر يوهم انه كان من أفسق الفساق ولكن روى صاحب الاغاني عنه انه حلف في مرض موته بالله انه ما ركب فاحشة قط ولا كشف ثوبا عن حرام قط ، وحلف مرة بعتق كل مملوك له على ذلك وكان له في الملوك وحده سبعون عبدا .

ومما روي عن غير عمر في هذا الباب تشبيب النميري بزينب الثقفية . ذلك أن يوسف بن الحكم الثقفي والد الحجاج المشهور كان قد اعتل في بلده (الطائف) فنذرت بنته زينب لتحجن ماشية ان عوفي ، فعوفي فخرجت في نسوة فقطعن بطن وَجّ (أي بطن وادي وج) وهو ثلاث مئة ذراع في يوم جملته مرحلة لثقل بدنها ولم تقطع ما بين مكة والطائف الا في شهر ، وكان محمد بن عبد الله النميري الطائفي يهواها فقال في حجها أبياتا منها :

تضوّع مسكا بطنُ نعمان إذ مشت ... به زينب في نسوة عطرات (١)
تهادَين ما بين المحصب من منى ... وأقبلن لا شعثا ولا غبرات (٢)
أعان الذي فوقَ السموات عرشه ... مواشي بالبطحاء مؤتجرات (٣)
مررن بوجٍّ ثم رحن عشية ... يلبين للرحمن معتمرات
يخبئن أطراف البنان من التقى ... ويقتلن بالالحاظ مقتدرات (٤)
وليست كأخرى أوسعت جيب درعها ... وأبدت بنان الكف للجمرات
وعلت بنان المسك وهنا مُرَجّلا ... على مثل بدر لاح في الظلمات (٥)
وقامت تراءى يوم جمع فأفتنت ... برؤيتها مَن راح من عرفات

وقد أراد الحجاج ان يفتك بالنميري لتشبيبه باخته لولا أن منعه منه عبد الملك وكتب اليه ان لا سبيل له عليه على انه ما وصفها هي وصواحبها الا بالتقى

وعلى ذكر أبيات النميري فيمن توسع جيب درعها وترفع يدها عند رمي الجمار ليرى ساعدها ، وتتراءى يوم جمع أي عند انصراف الناس منها صباحا الى منى لتفتن من أفاض اليها من عرفات — على ذكرها نقول لا عجب اذا وجد في النساء المفتونات بجمالهن من تحب ان تظهر جمالها في تلك المعاهد الشريفة كما وجد في الرجال مثل عمر بن أبي ربيعة الذي يخرج الى الحج ليغازل النساء ، ولكن هذا نادر وأكثر الشعر فيه تخيل ، ومنه قول العرجي الشاعر من أبيات كانوا يتغنون بها :

أماطت كساء الخز عن حرّ وجهها ... وأدنت على الخدين بُرد امهلا (٦)
من اللاء لم يحججن يبغين حسبة ... ولكن ليقتلن البريء المغفلا (٧)

روى أبو الفرج عن عبد الله بن عمر العمري قال : خرجت حاجا فرأيت امرأة جميلة

---

(١) تضوع فاحت رائحته وبطن نعمان أي وادي نعمان وهو بين الطائف ومكة ويروى بحرف القافية خفرات والخفر شدة الحياء (٢) المحصب موضع بين مكة ومنى (٣) مؤتجرات طالبات الاجر (٤) ويروى يخمرن بدل يخبئن والمصراع الثاني * ويخرجن جنح الليل معتجرات أي متلفعات بالمعاجر على رءوسهن (٥) البنان بكسر الباء جمع بنة بالفتح وهي الرائحة الطيبة والمل متابعة الشيء وأصله متابعة السقي . والوحف الشعر الكثير الحسن والمرجل من الترجيل وهو تسريح الشعر بالمرجل أي المشط . أي وعلت رائحة المسك منها شعرا اثيثا حسنا مرجلا فوجه يلوح بينه كالبدر في الظلمات (٦) البرد بالضم ثوب مخطط والمهلهل الرقيق النسيج والواهي أي برد لا يستر الوجه لرقته ولعله من الهلل بالتحريك وهو نسيج المنكوب (٧) الحسبة بالضم والاحتساب في العمل اعتداده ذخرا عند الله . والمغفل من لا فطنة له يتقي فتنة النساء

تكلم بكلام رفثت فيه فأدنيت ناقتي منها ثم قلت لها يا أمة الله ألست حاجة؟ اما تخافين الله؟ فسفرت عن وجه يبهر الشمس حسنا ثم قالت: تأمل يا عمي فاني ممن عنى العرجي بقوله

من اللاء لم يحججن يبغين حسبة ولكن ليقتلن البريء المغفلا

قال فقلت لها : فاني أسأل الله أن لا يعذب هذا الوجه بالنار . قال وبلغ ذلك سعيد ابن المسيب فقال : أما والله لو كان من بعض بغضاء أهل العراق لقال لها : اعزبي قبحك الله ، ولكنه ظرف عباد الحجاز (قال أبو الفرج) ورويت هذه الحكاية عن أبي حازم بن دينار — وذكر حكاية أخرى في معناها فيها ان أبا حازم قال لاصحابه: أدعوا الله لهذه الصورة الحسنة ان لا يعذبها بالنار . وأبو حازم من كبار عباد التابعين . وكان عباد العراق ولا سيما أهل البصرة منهم مشهورين بالشدة في العبادة والزهد ومنهم خرج أكابر الصوفية

وانما نختم هذا السياق بخبر أبي نواس فاسق الشعراء فقد روي أنه كان يهوى جارية لاحد المثقفين بالبصرة اسمها جنان وكانت حسناء أديبة عاقلة ظريفة تروي الاشعار وتعرف الاخبار فقيل له يوما انها عزمت على الحج فقال أما والله لا يفوتني المسير معها والحج عامي هذا ان أقامت على عزيمتها ، ثم سبقها الى الخروج وقال بعد عودته:

ألم تر أنني أفنيت عمري بطلبها ومطلبها عسير
فلما لم أجد سببا اليها يقربني وأعيتني الامور
حججت وقلت قد حجت جنان فيجمعني وإياها المسير

وروى صاحب الاغاني من خبر حجه عن شهده وقد أراد أنه لما جنه الليل جعل يلبي بشعر ويحدو به ويطرب ففني به كل من سمعه وهو قوله

لبيك قد لبيت لك لبيك إن الحمد لك
والملك لا شريك لك والفضل لما أن حللت
والسابحات في الفلك على مجاري المنسلك
ما خاب عبد أملك أنت له حيث سلك
لولاك يارب هلك كل نبي وملك
وكل من أهل لك سبح أو لبى فلك

يامخطئا ما أغفلك عجل وبادر أجلك
واختم بخير عملك لبيك إن الملك لك
والحمد والنعمة لك والعز لاشريك لك

والعبرة في هذه الوقائع والاشعار من وجوه (منها) أنه يدل على أنه لا يمكن أن يجتمع النساء والرجال الكثيرون في مكان ينظر بعضهم الى بعض الا ويكون لمغازلة النساء بالكلام أو بالنظر نصيب فيه كما قال عمر بن أبي ربيعة في أبيات مقصورة

ومن مالئ عينيه من شيء غيره اذا راح نحو الجمرة البيض كالدمي

واذا كانت مشاهد الحج لم تخل من المغازلة والتغزل في أول عصر الحضارة الاسلامية وأول العهد بتحجب النساء والدين لم يزل في قوة سلطانه على الارواح حتى ان أشد المترفين اسرافا في الخلاعة ومغازلة النساء لم يرتكب في عمره فاحشة فما ظنك في غير هؤلاء وأمثالهم وفي أهل هذا الزمان في غير تلك المشاهد؟ قال لي بعض القسيسين قد مات الدين ولا يقصد الناس المعبد الا لمغازلة النساء

(ومنها) ان أقوال الشعراء في مشاهد الحج وأيامه وأعماله مما يشوق القلوب الى تلك البلاد كما وقع لابن سريج في لبنى ولاجله كتبت هذا الفصل من الرحلة وانني وجدت نفسي في أيام كتابتي لهذا الشعر فيه شديدة الشوق الى الحجاز ومشاهد وليالي عرفة والمزدلفة ومنى ، على انني استمن المغازلة والتغزل في شيء ولم أر هنالك ولم أسمع عن أحد شيئا من ذلك وفقه الله

ولكنني أذكر في الكلام على هذه العبرة كلمتين لفاضلين مصريين كانا معنا في الحجاز (احداهما) قول أتقى الرجلين وأحسنهما تدينا وهو محصن انه رأى في بعض امرأة في نافذة دار مقابلة للدار التي كان فيها تحمل منظاراً تنظر فيه فتوهم أنها تنظر اليه فاشتغل قلبه بذلك مدة وجوده في منى (والثانية) قول الآخر وهو أعزب: انني لم أر في الحجاز امرأة وسيمة يشتهي المرء ان يعيد اليها طرفه فهل هؤلاء هن نساء العرب اللواتي شبب بهن الشعراء ذلك التشبيب الفاتن الذي يخيل لقارئه انهن أجمل نساء الأرض ؟ ويا ليت شعري كيف كان يكون غزلهم وتشبيبهم لو كان في نسائهم من الجمال ما نعهد في الآستانة وغيرها ؟